

د/ زبيدة الطيب

أستاذ محاضر أ

أستاذة العقيدة والفكر الإسلامي المعاصر، مشارك في العديد من الملتقيات الدولية والوطنية داخل وخارج الوطن، نشرت عدة مقالات في قضايا العقيدة الإسلامية وعلم الكلام في مجالات وطنية ودولية محكمة.

عنوان الورقة البحثية: المشترك المعرفي وإشكالية التحيز في الفكر الإسلامي الحديث - مقارنة تحليلية-

الملخص

يذهب بعض الدارسين والباحثين في العالم العربي والإسلامي إلى اعتبار أن المناهج والعلوم والمعارف لا وطن ولا جنسية لها، وأنها قسمة بين جميع البشر؛ أي أن جميع الأمم والشعوب تمتلك الحظ في صناعتها وإنتاجها، وإن كانت تتفاوت في ذلك تبعاً لدرجة رقيها وتقدمها، ومن ثمة تمتلك الحظ نفسه في الاستفادة منها ومن فتوحاتها في مختلف المجالات الحياتية. وهي، بهذا المعنى، تعد مشتركا معرفيا يعول عليه في التقريب بين الشعوب والمجتمعات في عصر؛ تكثر فيه عوامل التفريق وأسباب الافتراق المفضية إلى النزاعات والصراعات التي لا تنتهي.

ومن جهة أخرى هناك من يرى أن فهم المشترك المعرفي يتطلب معرفة وفهم طبيعة العلوم والمناهج؛ التي يعول عليها في تشكيله (أي تشكيل المشترك المعرفي)؛ فالعلوم والمناهج والمعارف ليست كائنات أو هياكل بلا مضامين، بل هي علوم ومعارف لا يمكن سلخها عن محيطها الحضاري الذي نشأت في فضائه لأنها تنطلق من خلفيات فكرية وثقافية؛ تستبطن قيما كامنة ومستترة متحيزة، تشكل في نهاية المطاف نموذجا معرفيا خاصا. ما يعطي لها (أي للعلوم) طابعا متحيزا يصعب الفكك عنه؛ وهذا يعني أن تحيز أي أمة أو مجتمع إلى ثقافته أو خلفيته العقدية والحضارية، ومنها التحيز الغربي، هو واقع لا يمكن نفيه أو تجاهل تأثيره في تشكل المعارف والعلوم والمناهج.

غير أن خطورة هذا التحيز تكمن في المحاولات المتكررة لفرض نموذج معرفي واحد؛ يعمل على تشغيل مصطلحاته ومقولاته عبر كل الوسائل بما فيها القوة المادية والعسكرية الاستعمارية؛ منذ النهضة الأوروبية إلى اليوم، الأمر الذي يهدد الذات ويوشك أن يؤدي إلى اغترابها، ولا يعطي، بهذه الصورة، مجالاً لبناء مشترك معرفي يفضي إلى بناء مشترك إنساني قوامه التعاون والمحبة والسلام.

إن ما سبق بيانه يجعلنا نتساءل كيف يمكن استثمار المشترك المعرفي بين المسلمين والحضارات الأخرى في الاتجاه الذي يعمل على التقريب بين الشعوب، ويحقق آمالها في التعايش من دون أن يكون

ذلك على حساب الذات وخصوصياتها الحضارية انطلاقاً من الرؤية الإسلامية؟ تلك هي الإشكالية التي نحاول معالجتها من خلال ثلاثة مطالب تتضمنها هذه الورقة البحثية، وهي:

المطلب الأول: المشترك المعرفي: مفهومه، حضوره في الإسلام وفي الفكر الإسلامي

المطلب الثاني: المشترك المعرفي كمدخل للتعايش

المطلب الثالث: المشترك المعرفي والفراغ المعرفي

المطلب الرابع: المشترك المعرفي والتحيز الحضاري

المطلب الأول: المشترك المعرفي: مفهومه، حضوره ومجالاته في الإسلام وفي الفكر الإسلامي

1/ المفهوم:

يقتضي البحث في مفهوم المركب "المشترك المعرفي" التعرف على لفظة المعرفة أولاً؛ فالمعرفة كما اصطلح عليها المتكلمون هي: "إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبقة بجهل بخلاف العلم، ولذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف."¹ وهي عند الفلاسفة: "إدراك الشيء بإحدى الحواس. وهي العلم مطلقاً كان تصوراً أو تصديقاً. وهي إدراك البسيط سواء كان تصوراً للماهية أو تصديقاً بأحوالها."²

وفي الفكر المعاصر تطلق المعرفة ويراد بها معنيان: "المعنى الأول: الفعل العقلي الذي يتم به حصول صورة الشيء في الذهن. والمعنى الثاني: الفعل العقلي الذي يتم به النفوذ إلى جوهر الموضوع، لتفهم حقيقته بحيث تكون المعرفة بالشيء خالية من كل غموض، ومحيطاً موضوعياً بكل ما هو موجود للشيء في الواقع."³ وهي بهذه المعاني تعني تلك العمليات العقلية الإدراكية؛ التي تهدف إلى تقديم ما يزيل الجهل ويقدم إجابات ويحل إشكالات ويزيد في تقدم الأفراد والمجتمعات في مختلف المجالات والميادين. وأهم ما يميزها أنها ناتجة عن تجربة وممارسة واكتساب خبرة، ومن ثمة يوصف بالمعرفي كل ما كان ناتجاً عن ذلك، خلاف ما كان ناتجاً عن هوى أو مصلحة أو عقائد مغلقة وهو ما يوصف بالأيدئولوجي. وتعرّف المعرفة كمبحث من مباحث الفلسفة على أنها البحث في المعرفة الإنسانية وحدودها والطرق المؤدية إليها.

والمعرفة هي أهم محددات التميز والتقدم بين الأمم والشعوب؛ إذ يكون لها (أي للأمم والشعوب) من التقدم والتميز بقدر ما لها من المعرفة. وأهم ما يميزها هو طبيعتها التراكمية؛ التي تظهر فيها قدرة الأجيال المتعاقبة على الحفاظ على منجزات السابقين والبناء عليها.

ومصادر المعرفة تختلف باختلاف ثقافات الأمم والشعوب وتباين الحضارات؛ وربما تتقاطع في بعضها، ولذلك فمصادر المعرفة عند المسلمين تختلف عن مصادر المعرفة عند الغرب في "... زيادة مصدرية الوحي

¹ عبد القاهر الجرجاني، التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، ص 185.

² التهانوي، كشف اصطلاحات الفنون، ج1، 1583

³ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982، ج2/ 392

واعتباره مصدرا يقينيا للمعرفة.⁴ في الوقت الذي يتنكر فيه العلم الوضعي الحديث الذي يقوده الغرب للوحي، بل ويعتبر التعلق به أحد أسباب التخلف الذي نال من أوروبا في القرون الوسطى.⁵

ويتعلق بمصطلح المعرفة ألفاظا ومصطلحات كثيرة منها: نظام المعرفة، إدارة المعرفة، احتكار المعرفة، الهيمنة المعرفية، الحق في المعرفة، اكتساب المعرفة والاستفادة من المعرفة. وكل منها يشكل مبحثا خاصا، وتدور معانيها في الغالب حول الجانب الاقتصادي والإداري للمؤسسات الصناعية والإنتاجية.

أما المركب " المشترك المعرفي " فإن الباحث يصطدم بجملة من المصطلحات التي تتشارك في لفظي المشترك/ والمعرفة وتختلف من حيث البناء والتركيب؛ وهي: المعرفة المشتركة / مشاركة المعرفة/ التشارك المعرفي/ والمشارك المعرفي. ولذلك وجب التعرف على كل مصطلح على حدة؛ من أجل تجلية المقصود في هذه الورقة.

فالمعرفة المشتركة: معناها أن الجميع يحمل المعرفة نفسها و "... لنعط فكرة مبسطة عن مفهوم المعرفة المشتركة: إن السمة الأساسية التي تميزها من باقي المنظومات الثقافية [...] هي كونها سهلة الولوج بالنسبة إلى غالبية أعضاء جماعة ما، [...] يتعلم الفرد المعرفة المشتركة كما يتعلم لغته الأم، عن طريق التنشئة الاجتماعية وعن طريق الاستماع إلى أقاربه وإلى الناس ووسائل الإعلام. ليس هناك متخصصون أو خبراء للمعرفة المشتركة على رغم وجود تفاوت بين الناس."⁶

وأما مشاركة المعرفة أو sharing knowlge فهي تعني "... تبادل المهارات والمعارف والتجارب والخبرات بين الناس -أصدقاء أو أسر - كما إنها تكون بين المجتمعات."⁷

والتشارك المعرفي أو التشارك بالمعرفة: فهو "... عملية إيصال ونقل المعرفة الصريحة أو الضمنية إلى أفراد آخرين، وهذا النقل يكون فاعلا إذا فهم المستقبل المعرفة المنقولة إليه، واستطاع استخدامها كمعرفة جديدة. وعرفه آخرون بأنه العملية التي يتم من خلالها نقل المعرفة الصريحة أو الضمنية إلى الأفراد الآخرين من خلال الاتصالات التي تتم بينهم[...]. ويهدف إلى دعم الإبداع في المنظمات كما هو مهم جدا لدعم أداء المنظمات وتطوير معرفة الأفراد الضمنية والمعرفة الصريحة من خلال إما التبادل أو من خلال socialization

⁴ عبد الرحمن بن زيد الزيندي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992، ص43
⁵ نتحدث عن الفكر الغربي الذي أسس نخصته على معاداة الدين؛ لأن الفلسفة المعاصرة تنحو إلى الإبتلاف والتكامل بين الفلسفي والديني، وتسعى إلى رد الروح إلى جسد العالم؛ باعتبار الدين ضرورة وجودية وأخلاقية لا بد منها. [أنظر في الموضوع على سبيل المثال: عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، السيد ولد أباه، الدين والسياسة والأخلاق.]
⁶ حسن رشيق، المعرفة المشتركة في حياة الناس اليومية: اللباس والدين، مجلة عمران، ع02، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سبتمبر 2012، ص02.

⁷ مشاركة المعرفة: معناها وأهميتها <https://masr.ta3mal.com/ar/Pages/Content/Article.aspx?ArticleID=4260>

إذ إن التبادل في المعرفة يركز على مشاركة المعرفة الصريحة ويستخدم الاتصالات ونقل المعرفة الصريحة بين الأفراد والجماعات والمنظمات. أما النواحي الاجتماعية كعملية لنقل المعرفة ومشاركتها فهي تسهل المشاركة للمعرفة الضمنية مما يسهل عملية خلق معرفة ضمنية جديدة لدى العاملين. [...] وهو أحد أكثر نشاطات إدارة المعرفة أهمية⁸.

ويبدو أن معظم تلك المصطلحات تدور حول ما يسمى باقتصاد المعرفة أو إدارة المعرفة. وهي بذلك تعد جزء من المعرفة بمعناها المجرد الذي رأيناه في التداول الاصطلاحي. كما يظهر أن ألفاظ المشترك والتشارك والمشاركة تدور حول المعنى اللغوي؛ وهو الاختلاط بين شيئين أو شخصين أو سلعتين وامتلاك النصيب نفسه والاستواء فيه؛ كقولهم طريق مشترك أي يستوي فيه الناس جميعاً.⁹

وأما **المشترك المعرفي** فهو كل المعارف الناتجة عن العمليات العقلية؛ التي يشترك جميع الناس أو أغليبيتهم أو معظمهم في إنتاجها وتقديمها وبيانها وإخراجها من حيز الجهل بها إلى أن تكون معلومة لديهم جميعاً. أو هو المعارف التي تقاسمتها معظم الحضارات والأمم والشعوب واختلطت وامتزجت ببعضها البعض؛ أي تلك التي نجدها في معظم الشرائع والأديان والمدارس الفكرية والحضارات والثقافات. أو هو الخبرة المعرفية الإنسانية العابرة لكل الإثنيات، وهو على تلك الصفة يشكل جسراً مُهمّاً للتلاقي والتعايش.

وهكذا وبالنظر إلى طبيعة المشترك المعرفي وأهدافه؛ فإننا نقول بأنه معني بالبحث في إيجاد القيمة وتوليد المعنى؛ الذي يجعل من التعايش مقصداً وثقافة وسلوكاً في ظل طغيان القيم المادية الصدامية التي تغامر بحياة الإنسان واستقراره، ونظيره المشترك الفكري. وهو ضربان: **أحدهما**: المعرفة التي تتخذ من أشياء الطبيعة وظواهرها وخصائصها موضوعاً لها، **وثانيها**: تلك التي تتخذ من موضوعات هوية الإنسان وقيمه وحرته والغاية من وجوده محور بحثها، أي العلوم الإنسانية والاجتماعية.¹⁰

وفي هذا السياق يعثر الباحث على مصطلحات أخرى مثل **التقاطع المعرفي والتداخل المعرفي والتكامل المعرفي**؛ فهل تتضمن هذه المصطلحات المضمون نفسه؟ وما علاقتها بمصطلح المشترك المعرفي؟

⁸ ذواي مي نجيب، أثر التشارك بالمعرفة في تحقيق الأهداف الاستراتيجية - دراسة تطبيقية على الجامعات الأردنية الخاصة - مجلة كلية بغداد للعلوم الاقتصادية، ع43، 2015، ص321.

⁹ أنظر: ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ج 10، ص448

¹⁰ / أحمد الفراك، علاقة المسلمين بالغرب والتأسيس القرآني للمشترك الإنساني، مطبعة إفريقية الشرق، عرض للكتاب في شبكة ضياء.

فالتقاطع المعرفي هو: "... أن المعارف النظرية قد تقوم في فترة ما على مساطر معرفية مشتركة لاشتراكها في مقارنة موضوع موحد." ¹¹ ومثله التقاطع بين العلوم النظرية والعلوم التطبيقية التي نجدتها مثلاً في اللغويات النفسية واللغويات الاجتماعية واللغة والأدب ...

وأما التداخل المعرفي أو التداخلية؛ فهو مصطلح اشتغل عليه بشكل مكثف في السياق الإسلامي الفيلسوف طه عبد الرحمن في مشروعه لتجديد المنهج من أجل إعادة قراءة التراث؛ بعيداً عن الآليات والمناهج الغربية، وهو بمعنى ما: يُقصد به انتقال أو رحيل مفاهيم أو معاني من علم إلى آخر واكتسابه معاني ومفاهيم جديدة أو اكتسابها لمعان جديدة مستحدثة غير التي كانت عليها في حقولها الأصلية التي نشأت فيها. وهو ما ينشئ التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية، كما يذكر طه عبد الرحمن، وسمما التكامل التداخلي لمعارف التراث. ¹² وبذلك لا ينفك مفهوم التداخل المعرفي عن التكامل المعرفي. ويرجع العديد من الباحثين السبب في ذلك إلى محورية النص القرآني في الثقافة الإسلامية. ¹³

ويذكر التكامل المعرفي من جهة التأكيد على النظرة التوحيدية التي تميز الفكر الإسلامي على أنه "... الإدراك التام الواعي للحقائق المتصلة بالوجود الإلهي والكوني والإنساني، وما ينتظم به من سنن، وما ينشأ عنه من علوم ومعارف، تظهر به الآثار العملية والجمالية للمعرفة في ربطها أجزاء ذلك الوجود وانتظام علاقاته وفق هداية الوحي." ¹⁴

أما التبادل المعرفي؛ فيعني ما يحصل بين الجامعات والمراكز والهيئات وغيرها. وهو يدخل في إطار اتفاقيات التعاون التي تبرم من أجل تعميم الاستفادة ونشرها بين الشعوب والبلدان. وقد قرأنا أن بعض الجامعات في العالم العربي أنشأت لإدارة للتبادل المعرفي والتعاون الدولي.

يبدو أن المشترك المعرفي هو حديث عن معارف إنسانية؛ عابرة للإثنيات العقديّة والدينية والعرقية وغيرها؛ أي أنها ليست خاصة بمحضارات أو أمم بعينها. ويشترك معه التقاطع المعرفي من حيث حصول نقطة التقاء في مقارنة موضوع موحد بين حقلين معرفيين مختلفين سواء كانا ينتميان إلى ثقافة وحضارة واحدة أو كانا مختلفين. وكذلك الحال بالنسبة للتداخل المعرفي الذي يبدو في السياق الإسلامي يتغيأ بيان المنهج الصحيح لقراءة التراث الإسلامي، وهو المنهج القائم على التداخل بين المعارف والحقول المعرفية الإسلامية والصورة التكاملية التي ترمي إليها، بعيداً عن الرؤية الغربية التي طغت على دراسة التراث الإسلامي من قبل الكثير من

¹¹ / أحمد الملاخ وحافظ اسماعيلي العلوي، بعض الاستراتيجيات التأويلية لفهم اللغويات العربية، مجلة فكر العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع08، يونيو 2008، ص03.

¹² / أنظر: طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، باب: النظرة التكاملية إلى التراث الإسلامي العربي والاشتغال بالآليات التداخل المعرفي من ص 75 – 162، ط2، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

¹³ / أنظر: محمد بنمعمّر، الدلالة المصطلحية للتداخلية وموقعها في قراءة التراث عند الدكتور طه عبد الرحمن، مركز نماء للبحوث والدراسات، ص03.

¹⁴ / زياد خليل الدغامين، التكامل المعرفي في القرآن الكريم، مجلة الأردنية للدراسات الإسلامية، المجلد التاسع، 2013، ص 165.

المفكرين والباحثين. وهكذا ننظر إلى التقاطع المعرفي والتداخل المعرفي والتكامل المعرفي على أنها تشكل بعض مستويات المشترك المعرفي. في حين يظهر التبادل المعرفي وسيلة إجرائية لتفعيل المشترك المعرفي.

2/ المشترك المعرفي: حضوره ومجالاته

-/ المشترك المعرفي في الإسلام وفي الفكر الإسلامي:

نتساءل في هذه النقطة حول إمكانية العثور على مشترك معرفي ثاو في القرآن الكريم؛ بمعنى هل يخاطب الله عز وجل الناس بمعارف واحدة على الرغم من اختلافهم في الخلق والجنس واللون وغير ذلك؟ وهل هي (أي المعارف) مما يشكل مشتركا معرفيا بينهم؟ وهل يمكن القول أن الحضارة الإسلامية استطاعت تجسيد الخطاب القرآني وتستوعب كل الأجناس والثقافات وتنتج مشتركا معرفيا؟

أولا- المشترك المعرفي في القرآن الكريم:

نقصد به تلك المعارف التي يقدمها القرآن الكريم ويخاطب بها الإنسان ولا يخص بها المسلمون فقط. ويمكن تسميته **المشترك المعرفي الإلهي**؛ وهو مشتركا من جهة أن المعنى به الإنسان الذي يختلف في الجنس واللون والعرق والدين ويشترك في الإنسانية، وليس بالمعنى الذي قد يتبادر وهو أنها معرفة يشترك في تقديمها أكثر من إله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا؛ أي مشتركا من جهة المتلقي المخاطب لا من جهة المصدر المخاطب.

والقارئ للقرآن الكريم يلحظ أن كثيرا من الآيات تشكل نسقا كليا، وتهدف إلى غاية واحدة وهي العناية بالإنسان، ولذلك يكثر فيها الخطاب بصيغة الناس وأهل الكتاب متجاوزة صيغة الخطاب بـ "الذين آمنوا" أو "المؤمنون"؛ ما يعني أن مضامينها ليست خاصة بصفة المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم فقط، بل تتعداها إلى جميع الناس وإلى المؤمنين بالديانات الأخرى أي أهل الكتاب. ويمكن أن نتحدث في هذا المجال عن تلك الخطابات التي تتركز خاصة حول موضوعات العقيدة؛ حيث يظهر أن **توحيد الله عز وجل** ووجوب إفراده بالعبودية؛ كونه المستحق لها بوصفه الرب المعترف له بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والعطاء والمنع والنفع والضرر وما إلى ذلك... وهو ما يسمى في العقيدة الإسلامية بتوحيد الربوبية الموجب لتوحيد الألوهية والعبادة.

فقد توجه الله عز وجل أحيانا إلى الناس جميعا بذلك فقال: "يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم." [البقرة/ 21] وأحيانا أخرى يتوجه إلى كل قوم على حدة، ولذلك نجد الخطاب نفسه يحمله نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام إلى أقوامهم على اختلافها فقال تعالى: "لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ." [الأعراف/ 59] وقال: "وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره." [الأعراف/ 56] وقال: "وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما

لكم من إله غيره. [الأعراف/73]" وإلى مدين أخاهم شعيب قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. "
[الأعراف/85]

كما يظهر موضوع الإنسان وطبيعة خلقه ووظيفته في الحياة وعلاقته بالله تعالى وبالإنسان والكون من الموضوعات التي تعبر عن خطاب مشترك ومعرفة مشتركة؛ ففي طبيعة خلقه يقول تعالى " وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. " [الحجر / 28-29] وحول وظيفته يخاطب الله تعالى الإنسان بالقول: " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. " (البقرة/ 30) وقال: " هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها. " [هود/ 61] وقال: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. " [الذاريات/56]

وفي شأن علاقته بالله يتوجه تعالى إلى الإنسان ويذكره بطبيعة خلقه؛ القائمة على الحرية ويعيب على أهل الكتاب أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله فيقول: " اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ " [التوبة/31] وقال تعالى مخاطبا أهل الكتاب: " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. " [آل عمران / 64] فإنه كلما تعبد الإنسان إلى الله تعالى تحرر، وفي المقابل تضيع حرته وتسلب كرامته كلما تخلى عن عبادة الله تعالى وحده.

وحول علاقة الإنسان بالإنسان يقول تعالى: " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم. " (الحجرات / 13) وأما العلاقة بالكون والبيئة فنجدها في الكثير من الآيات منها قوله تعالى: " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه. " [الملك / 15] وقوله: " والخيل والبغال والحمير لتركبوها. " [النحل/08] وقوله: " وسخر لكم الليل والنهار وأتاكم من كل ما سألتموه. " [إبراهيم/33] وقال: " وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا. " [النحل/14] وغيرها...

كما تشكل الموضوعات ذات العلاقة بالجانب الأخلاقي والقيمي مشتركا معرفيا يوليه القرآن الكريم أهمية كبيرة؛ حيث نعثر على العديد من الآيات التي تقدم للمسلم وغير المسلم قيما أخلاقية تقوم عليها حياة الإنسان: من ذلك قيمة الحرية والكرامة والتعاون والتعارف والمساواة والعدل، يقول تعالى في ذلك: "... ومنها ما نجده مشتركا بين المسلمين وأهل الكتاب؛ يذكره الله تعالى في قوله تعالى: " ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين. " (آل عمران/

113-115) ما يظهر أن "... العلاقة بين الدين والإنسان، علاقة عميقة ودائمة. ولا يمكننا أن نتصور أن تكون القيم الدينية في موقع مضاد للإنسان وجوداً ومصلحة. فداءً قيم الدين ومبادئه مع الإنسان، ووظيفتها الأساسية هي الحفاظ على الإنسان في مختلف المستويات والدوائر.¹⁵ ولا شك أن المعرفة المشتركة الواردة في القرآن الكريم إنما مردها إلى عالمية الرسالة الإسلامية وخلودها؛ فهي لا تختص بزمان ولا مكان معين ولا هي خاصة بجيل من الأجيال ولا تقتصر على جنس دون آخر.

فهل يمكن أن نستلهم من المشترك المعرفي في القرآن؛ ما يمكن أن نسميه أسس أو منطلقات المشترك المعرفي؟

-/ أسس المشترك المعرفي في القرآن الكريم:

هناك العديد من العناصر التي يمكن أن تشكل موجهاً ومرتكزات؛ يقوم عليها المشترك المعرفي في الإسلام؛ وهي ضربان: مصدر المعرفة وغاية المعرفة.

1/ مصدر المعرفة: المتمثل في:

- الديانات والشرائع السماوية:

تلعب الديانات السماوية دوراً كبيراً في إنتاج مشترك معرفي يعين على التواصل والتعايش بين الشعوب؛ بالنظر إلى وحدة المصدر وهو الله عز وجل، ولذلك فهي تشكل مشتركا دينيا. والمشارك الديني هو " ما تشترك فيه هذه الأديان من مجموعة العقائد والشعائر (والطقوس) بالإضافة إلى نقاط التلاقي والتوافق بينها.¹⁶

ومع أن العقيدة الإسلامية ترفض الإيمان بالديانتين اليهودية والنصرانية لأنهما محرفتين؛ إلا أنها تعترف بهما وتقر بضرورة احترام أتباعهما والمؤمنين بهما من منطلق وحدة المصدر. وهو ما يعول عليه من أجل إنتاج معرفة مشتركة تمكن من "... الخروج من أسر العقد القديمة والمفاهيم المغلوطة على جميع الجوانب والتطلع في الوقت نفسه إلى مستقبل مشرق ينعم فيه الإنسان مسلماً كان أو مسيحياً أو يهودياً بالأمن والاطمئنان.¹⁷

- العقل الإنساني:

العقل الإنساني المعني بإنتاج وبناء المعارف والعلوم واحد عند جميع البشر، وهو يشتغل من أجل الغاية نفسها، وإن تعددت المناهج فإنه يظل في توجهه نحو تلك الغاية واحداً؛ فهو ما يشترك فيه جميع البشر؛ فهو

¹⁵ / محمد محفوظ، من التنوع إلى المشترك، مجلة الكلمة، ع102، السنة 26، شتاء 2019،

¹⁶ / سومية حجاج، المشترك الديني بين الأديان السماوية والعالمية، بيروت، دار الكتب العلمية، ص23

¹⁷ / خالد الزواوي، سماحة الأديان والسلام العالمي، ط1، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2004، ص10.

عند المسيحيين "... الآلية التي يعتمد عليها علم اللاهوت."¹⁸ كذلك عند المسلمين؛ يقول أبو الحسن الندوي: "... الإنسان جسم وروح وهو قلب وعقل وعواطف وجوارح."¹⁹ فالعقل هو الشيء المشترك في الحضارتين الغربية والإسلامية، فالغربيون يعلنون دائماً اعتمادهم عليه في كل شيء، والمسلمون لا يرون فيه أي تعارض مع الدين. فالشريعة تؤكد أن العقل البشري يمثل أصلاً من أصول المرجعية الشرعية، وتدعو إلى الاحتكام إليه في الحوار مع غير المسلمين. وقد ظل "... العقل والفلسفة يشكل البعد الكوني الذي يمكنه أن يجمع بين كل البشر الذين يبحثون عن الحقيقة، وقد كانت المعارف حول طبيعة المعرفة وحول إشكالية الجسد والروح وحول الأخلاق والفرد الأساس المشترك بين المفكرين المسلمين والمسيحيين الذين طوروا معاً ميادين ثقافية كما حدث مثلاً في القرنين الثامن والتاسع عندما كان الإسلام هو الرائد ثقافياً."²⁰

- وحدة الفطرة:

تشكل الفطرة السليمة عاملاً ومرتكزاً مهماً في توجيه العقل الإنساني نحو مقصد السلام والحب والتعايش، إذا ما تمكنت الأهواء من العقل والدين وأفسدتهما وحرفتهما عن الغاية الإنسانية في إنتاج خطاب وسلوك التعايش. يقول الشيخ محمد عبده: "... رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله في الخلقة وشرف اندراجها في النوع الإنساني وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها."²¹ فكان "... العقل إلى جانب الطبيعة الإنسانية المشتركة (الفطرة) المصدر الأساسي الذي يجمع بين كل الناس."²²

2/ وحدة مقصد المعرفة والحاجة إليها:

يعد الاستقرار والتعايش والسلام هو أحد أهم المقاصد والغايات التي تهدف إليها المعرفة اليوم، وهو ما يجري الاتفاق حوله (أي حول مقصد المعرفة) بين الناس في كل العالم؛ ف"... معلوم أن من أهم مقومات العيش الكريم، ونيل القوة والتمكين، والرقي والتعمير؛ هو الاستقرار بكل أنواعه، وفي كل مجالاته، ولا سيما في المجالين السياسي والاقتصادي، ولا يكون هذا الاستقرار واقعا ملموسا ينعم به المواطنون، إلا بوجود وتحقيق مطلب وحدة الكلمة ووحدة الصف، لأن من شأن اضطرابهما اضطراب حياة الناس؛ ولذا يكثر في الاستعمال السياسي

¹⁸ / حبيب فياض، مقاربات في فهم الدين، ط2، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2008، ص 27.

¹⁹ / أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص 107

²⁰ / يوسف سايفرت، تفاعل الحضارات، تر: حميد لشهب، الرباط، دار الأمان، 2004، ص 29.

²¹ / محمد عبده، رسالة التوحيد، تحقيق: محمد عمارة، ط1، القاهرة، دار الشروق، 1994، ص 152

²² / يوسف سايفرت، تفاعل الحضارات، ص 29.

والاقتصادي استخدام كلمة الاستقرار بوحدة الصف، والكلمة الواحدة؛ ذلك أن الاستقرار ضرورة من ضرورات العيش الكريم.²³

وهذا ما يفسر لنا ذلك الانسجام بل ربما التطابق بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية من حيث غايتها "... فهي وإن كانت مختلفة من ناحية المناهج التي تقوم عليها، والمصادر التي تمتح منها، فهي موحدة الهدف والغاية، فجميع المعارف والعلوم [...] فنحن إذا أمعنا النظر فيها، نجد أنها ترجع لحفظ الأمور التي اتفقت الشرائع السماوية على وجوب المحافظة عليها، أعني الدين، والبدن، والعرض، والمال، فالبدن مثلاً يحفظ بعلم الطب، ومن متمماته كل ما يزداد به الطبيب مهارة في صناعته من علوم الطبيعة، والمال أيضاً يحفظ بالحساب، وبالفلاحة وسائر الصناعات.. والعرض يستعان على حفظه بكل ما يعين على اكتساب المال الحلال من العلوم المشار إليها، فإن صاحبها لا يضطر إلى التهاوت على أموال الناس بأي طريق أمكنه، ولو دنس عرضه، أما الدين، فإن سائر المعارف الدنيوية المشار إليها، مما يتوصل بها إلى حفظه وتهيئة أسباب استقامته.²⁴ فحماية الإنسان واستقراره النفسي والاجتماعي وحفظ النفس وسلامة البدن؛ هي في النهاية مقاصد كل المعارف والعلوم بصرف النظر عن مرجعياتها وخلفياتها الفكرية والثقافية والحضارية.

ثانياً- المشترك المعرفي في الفكر الإسلامي:

ونقصد به المشترك المعرفي كما تعبر عنه التجربة الحضارية الإسلامية، وكيف انبنت هذه الحضارة على عطاءات وإنجازات وتفاعلات الكثير من الحضارات والأمم والأعراق؛ التي اندمجت في بوتقة الأمة الواحدة، وكيف يتجسد (أي المشترك المعرفي) في التراث الإسلامي من جهة الموضوعات والإنجازات والمناهج؛ لأن "... المعرفة العلمية بمناهجها وموضوعاتها وقضاياها وما يتعلق بها من إنجازات ونتائج تقنية وعلمية مشتركة إنسانية، فهي ثمرة إجهاد الإنسان لقواه الإدراكية والبدنية في فهم واستثمار الأشياء المسخرة له وفق السنن الكلية الناطمة لوجودها.²⁵

إن المناخ الفكري الحر الذي أعقب الفتوحات الإسلامية؛ التي طالت الكثير من البلاد التي كانت تدين باليهودية أو النصرانية أو الزرادشتية والمناوية، أو كانت من أصحاب العلوم والفلسفات كالفرس واليونان والهنود سمح بالتلاقح والتشارك في ميدان المعارف والعلوم. كما أسهم الخلق الإسلامي تجاه المخالف بالمزيد من الاحتكاك المعرفي وتطويره لأنهم "... كانوا مع الجميع على أحسن ما يعامل به العشير عشيره، فتعلموا منهم

²³ محمد محفوظ، من التنوع إلى المشترك، مجلة الكلمة، ع102، السنة 26، شتاء 2019.

²⁴ محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، ط1، مصر، دار السلام، 2006، ص 96-97.

²⁵ أحمد الفرك، علاقة المسلمين بالغرب والتأسيس القرآني للمشارك الإنساني، مرجع سابق.

وعلموهم، وترجموا كتب علومهم، وجمعوا لهم الحرية في إقامة رسومهم.²⁶ وربما مثلت بيت الحكمة التي أقامها الخليفة العباسي هارون الرشيد في بغداد أحد أهم المظاهر؛ التي جسدت ذلك التعاون والتشارك المعرفي؛ حيث خصص فيها قلما للترجمة إلى جانب علوم الدين والبلاغة واللغة والنقد والتاريخ؛ فنقلت مدارس الترجمة المعارف من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية.²⁷ "... فكانت بذلك حضارة إنسانية ذات بعد عالمي."²⁸ ولذلك لم ينكر علماء المسلمين يوماً "... استفادتهم من تلك الحضارات، بل ويفخرون بذلك ويعتقدون أن الحضارة هي إنجاز مشترك بين الأمم المختلفة"²⁹

وهنا نتساءل كيف يمكن أن يكون هذا الرصيد المعرفي؛ الذي اشتركت في إنجازه كل تلك الثقافات والحضارات مدخلا للتعایش اليوم؟

المطلب الثاني: المشترك المعرفي كمدخل للتعایش

لقد تجسد المشترك المعرفي في الحضارة الإسلامية، وظهرت قدرة الإسلام على استيعاب الكثير من الثقافات والحضارات، ومن ثمة إنتاج الكثير من العلوم والمعارف. ولما كان البحث في كل تلك العلوم والمعارف بوصفها مشتركا من الصعوبة بمكان لكثرتها وتشعبها فإننا سنقصر البحث في بعض المعارف؛ التي ظلت تخاطب الإنسان وتتحمس مواجهه، وترسم آماله في الحب والسلام والتعایش كنموذج يحضر بكثرة في خطابات الحوار بين الحضارات في الندوات واللقاءات التي تعقد منذ سنوات. ونقصد بها التصوف أو العرفان النظري.

إن التصوف مادة تخاطب الروح التي لا تعرف لونا ولا عرقا ولا مذهبا ولا طائفة، وهو يخاطبها في الأعصار والأمصار التي ينتشر فيها التعبد للمادة وتنقطع فيها أواصر المحبة والتعلق بالله تعالى، ويظهر الظمأ الأنطولوجي للدين ويشيع فيه الحقد والكراهية والاقتيال والذبح على الهوية.

وهو "... ذلك اللون من التعقل الذي يهدف إلى بناء أو تكوين تصورات عقلية انطلاقا من تجارب روحية."³⁰ وتلك التصورات العقلية المبنية على التجارب الروحية هي التي يسمونها الرؤية الكونية العرفانية؛ والمقصود بها النظرية التي يقدمها العرفاء، والتي تفسر رؤيتهم لله تعالى والعالم والإنسان، بالاعتماد على المعرفة القلبية والشهودية خاصة. وهو بذلك يكون المعرفة القادرة على تشكيل التصور الذي تعجز عن تشكيله المعرفة

²⁶ محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس: دار سحنون، والقاهرة: دار السلام، 2006، ص 219

²⁷ أنظر: عبد الله التطاوي، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 2006، ص 32.

²⁸ عمر عبيد حسنة، تكامل الحضارات بين الإشكالات والإمكانيات، <https://www.islamweb.net/newlibrary/display>

²⁹ نوال حسن البحطيطي، العلوم عند العرب والمسلمين، دار الخليج، ص 22.

³⁰ حيدر حب الله، العرفان الإسلامي بين الإشكالية المعرفية والآلية التربوية والمنحى الواقعي، مركز البحوث المعاصرة ببيروت،

الحسية والفلسفية؛ التي لا تقوى على أن تكون وسيطا للتعايش والسلام لأن ثمة هدف آخر تبدو المعرفة القلبية أقدر عليه ونعني به ما تتوصل إليه من معرفة؛ تلي رغبة إنسانية جامعة بين البشر وتحقق طموحهم في العيش المشترك.

ولذلك فإن العرفان النظري أو المعرفة القلبية؛ يعد أحد أبرز حقول المشترك الإنساني، وينظر إليه على أنه أحد أهم وسائط التقارب والتعايش؛ بالنظر إلى كونه المعرفة الأكثر إحساسا بالناس والأكثر استشعارا لآلامهم وهمومهم والأكثر إيمانا بفضيلة السلام والأمان والعدالة بين بني البشر والأكثر معرفة بقيمة الإنسان ودوره في الحياة وعلاقته بخالقه لأن قدوتهم ومثلهم الأعلى في ذلك هم الأنبياء والرسل وإرثهم المعرفي الذي يبقى الشعاع الذي به يوجه الناس صوب الحق والحقيقة . ولذلك وجدناه يجذب العديد من الشخصيات والمهاجرين له من الغرب " ... وأضحى مدخلا هائما من مداخل اكتشاف مخزون ومكنون القيم الروحية في الديانات التوحيدية الكبرى."³¹

وبصرف النظر عن أهم الإشكاليات المطروحة بين المشتغلين في هذا الحقل وهي: هل أن جذب السالك إلى هذا الطريق يكون عبر خلق تصورات نظرية عن التجربة، أم أن ذلك لا يتم إلا بأسلوب عملي ربما يكون قائما على ممارسات طقسية وذكورية، أو على أنواع تربوية تهذب النفس وتصفيها؛ بوصفه تفاعلا خلافا على صعيد القناعات والمسلك مع قيم الدين ومثله العليا. وكون تطهير الباطن أو توفير المقدمات الروحية هي الشرط الشارط للانخراط في هذا المسلك أو التجربة الدينية العرفانية؛ لأن حجر الأساس في هذه التجارب هو الاندفاع القلبي الطوعي.³² فإن ما يهمنا في هذا المقام هو أن العرفان النظري يمثل جسرا معرفيا مهما للتعايش والتسامح بين المسلمين والغرب اليوم. " ... ولعل التجارب أو المدارس العرفانية الإسلامية والمسيحية هي أحد نماذج ذلك."³³

لكن ما الذي يجعل هذا المشترك، على الأقل لحد الآن، عاجزا عن أن يكون أو ينتج خطابا معرفيا أو رؤية إنسانية بالرغم من الإمكانيات التي يستبطنها، ويبقى محصورا في ممارسات فردية معزولة ومحدودة لا تقوى على التأثير في المشهد العام للعلاقة بين المسلمين والغرب وفي المقابل تتصاعد خطابات الصدام والنهايات؟

المطلب الثالث: المشترك المعرفي والفراغ المعرفي:

³¹ / محمد محفوظ، من التنوع إلى المشترك، مجلة الكلمة، مرجع سابق.

³² / المرجع نفسه

³³ / أنظر على سبيل المثال: كتاب الأسس النظرية للتجربة الدينية - قراءة نقدية مقارنة لآراء ابن عربي ورودلف أتو.

ينشط الغرب، ومنذ لحظة التعرف على العالم العربي والإسلامي في القرن التاسع عشر، في ممارسة الفراغ المعرفي وتأييده على شعوبه ومجتمعاته. والمقصود هو إفراغ العقل الإسلامي من إمكانيته أو قدرته على إنتاج أو صناعة أو إبداع أي شكل من أشكال المعرفة وقصر ذلك في العنصر الأوروبي حصرا، وهو نوع من الإبادة الفكرية والإقصاء المعرفي للمخالف حضاريا وثقافيا؛ اعتمادا على:

1/ الفكر الاستشراقي:

الاستشراق هو أحد المعارف والألوان الفكرية؛ التي تهدف للتعرف على المسلمين وحضارتهم من قبل المفكرين والفلاسفة والرحالة الغربيين، والذي أعقب لحظة التعرف الأولى على المسلمين. وكان من المفترض أن يشكل مادة وفضاء معرفيا للتقارب والتعاون وبعث المشترك المعرفي وتعزيزه؛ إلا أنه بدا معولا من معاول الهدم وتقويض ما بين المسلمين والغرب من روابط معرفية وإنسانية، لأنه تأسس من أول يوم على "... احتقار الحضارات الشرقية بصفة عامة والإسلامية بصفة خاصة وأصبغ عليها طابع التخلف والانحطاط." ³⁴ بل ذهب إلى إنكار أي وجه من أوجه الحضارة والإنسانية عليها وتصويرها بأبشع الصور؛ فانسلخ من كونه فضاء للتعارف ومعرفة الآخر إلى ظاهرة استعمارية أو كما يصفها إدوارد سعيد امبريالية استعبادا للشعوب الشرقية ونهب لثرواتهم وخيراتهم المادية والمعنوية وأسلوب غربي للسيطرة على الشرق وإعادة بنائه. ³⁵ وهو ما جعل محاولات الحوار التي تتم تحت مسمى حوار الحضارات تفشل لأنها تصدر عن روح "... المستشرق الذي يريد أن يحذر الغرب من حوار الشرق لأن هذا الشرق متعصب ولا يحسن الحوار." ^{36 37}

2/ خلق نموذج هيوماني غربي:

³⁴ عقيلة حسين، المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي، ط1، بيروت، دار ابن حزم، 2004، ص47.

³⁵ أنظر: إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، الإنشاء، تر: كمال أبو ديب، ط1، بيروت، دار مؤسسة البحوث العربية، 1990، ص

03

³⁶ عقيلة حسين، المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي، مرجع سابق، ص69.

³⁷ ومع أن الاستشراق في مجمله قد بدأ استعماريا وأيديولوجيا؛ ومن ثمة يمكن اعتباره أحد معاول هدم الحوار بين المسلمين والغرب اليوم، إلا أن ذلك لا ينبغي أن يغفل دور الاستشراق في التقريب والحوار بالنظر إلى وجود ما يمكن تسميته بالاستشراق النزيه؛ الذي قد يشكل وسيلة فعالة ودعما قويا لتفعيل ونشر ثقافة الحوار؛ حيث يمكن الشعوب من التعرف على بعضها البعض حضاريا وفكريا وثقافيا وبمكثها من التعايش بعيدا عن اعتبار الانثنيات العرقية والدينية. (أنظر: حمدي زقروق، الإسلام في مرآة الفكر الغربي، ط4، دار الفكر العربي، 1994، ص77).

النموذج الهيوماني هو أحد أهم أسباب التمرکز حول الذات الذي يمارسه الغرب اليوم؛ إذ "... يقدم الغربيون الحضارات الأخرى على أنها هي الأدنى، ومن ضمنها الحضارة الإسلامية، وأنها ستظل كذلك رغم محاولات النهوض، وسيظل الغرب يحتفظ بصورة المتفوق الذي أفرزته الأنتروبولوجيا الاستعمارية أو علم الإنسان الكولونيالي وهي النظرة التي تحتكر المعرفة ولا ترى أن الجنس السامي جنسا قادرا على إبداع العلوم والمعارف أو إنتاجها بسبب الارتباط الوثيق بالدين الإسلامي. وهو في الواقع ليس نموذجاً "... هادماً للخصوصيات الثقافية للشعوب المسكون بها جس الهيمنة وعقدة المركزية الحضارية للغرب".³⁸ فحسب بل نافية ومنكراً لها أصلاً؛ لأن كونه هادماً لها يستبطن اعترافاً ضمناً بها لكنه يعمل على هدمها.

3/ التحكم المصلحي والأيدولوجي:

يتحرك الغرب منذ اللحظة الأولى؛ التي تعرف فيها على العالم الإسلامي في اتجاه الاستعمار والنهب وتغليب المصلحة والانتصار للأيدولوجيات الضيقة؛ التي تضحى بالإنسان والبيئة والعالم كله؛ ف"... نخضة الغرب وحضارته قامت على استعمار الآخرين اقتصادياً في المقام الأول، ثم عسكرياً، وأخيراً ثقافياً. فكانت أفواج القادمين إلى الشرق المستعمر تتمثل في الشركات أولاً، ثم الإدارة المدنية والجنود ثانياً، والتعليم والتبشير ثالثاً، والإعلام رابعاً وأخيراً [...]. فالغرب بهذا التحديد تحرك بصورة عدوانية، ونهب ثروات الشعوب الأخرى، وسيطر عليها".³⁹

وبهذا الشكل يظهر التحيز الغربي في أشبع صورته، ويترسخ في العقل الغربي صورة النموذج الذي لا يتكرر والغير قابل للتنازل. وفي هذه النقطة ينبغي الفصل بين التحيز الذي توجهه الأيدولوجيات المقبولة والمصلح الضيقة والتحيز الطبيعي للخلفيات الثقافية والحضارية، وهو ما سنبينه في المبحث التالي.

المطلب الرابع- المشترك المعرفي والتحيز الحضاري:

وهي النقطة التي تستبطن إشكالا رئيسا وهو: كيف يمكن فهم العلاقة بين المشترك المعرفي بوصفه جسرا للتعايش والتقارب والتحيز بوصفه رؤية للتمييز والخصوصية؟ ومن أجل تبين تلك العلاقة نعرض بداية لـ:

مفهوم التحيز:

التحيز في اللغة العربية يعني التلوي والتقلب، يقال تحيزت الحية: إذا تلوت. وتحيز: أي صار في حيز وهو الناحية؛ فقله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأُدْبَارَ (15) وَمَنْ يُؤَلِّمْ

³⁸ /حماد رفيع، المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني، إسلامية المعرفة، ع66، السنة 17، 2011، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،

³⁹ /عمر عبيد حسنة، تكامل الحضارات بين الإشكاليات والإمكانات، <https://www.islamweb.net/newlibrary/display>

يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَصَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16)

(الأنفال/ 15-16) معناها منحاز إلى فئة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها.

وتبعا للدلالة اللغوية وسياقها؛ فإن التحيز يعني الإنحياز المطلق إلى طرف على حساب آخر، ولكن هذا الانحياز قد يحمل معاني إيجابية كما يمكنه أن يحمل مضامين ومعاني سلبية. فالتحيز السلبي هو بمعنى من المعاني التعصب القائم على المفاضلة والتراتبية بخلاف التحيز الإيجابي الذي يشير إلى التمايز الحضاري، ويعبر عن الخصوصيات الذاتية. وهو بمعنى آخر "... إحساس أبناء شعب أو أمة ما بالاختلاف عن (الغير)، ويعبر عنه عادة بـ«الأنا»، وذلك للتعبير عن الخصوصية الذاتية مقارنة بـ«الآخر»." ⁴⁰ ومنه التحيز المعرفي الذي يعرفه عبد الوهاب المسيري بالقول: "... إن التحيز هو وجود مجموعة من القيم الكامنة المستترة في النماذج المعرفية والوسائل والمناهج البحثية التي توجه الباحث دون أن يشعر بها." ⁴¹ وكونه معرفيا يعني أنه لا يخضع للإرادات الأيديولوجية؛ فهو "... ينتمي ابتداء للمجال الثقافي الاجتماعي ولنظرية الثقافة، حيث تحضر الخصوصيات الاجتماعية والتاريخية كامنا لا يمكن تجاوزه وبارزا لا يمكن تجاهله، ومشكلا رئيسيا ومائزا بين الأنساق المعرفية والثقافية المختلفة؛ فهو في هذا ينتمي لإرادة المعرفة فعلا وممارسة وليس لإرادة الأيديولوجية." ⁴² وهو معرفي من جهة ثانية؛ لتعلقه بالأبعاد والمضامين الإنسانية فهو "... يسعى لتأكيد البعد الإنساني -بعيدا عن دعوى المركزية- بتأكيد بعده الثقافي والحضاري الخاص في الآن نفسه." ⁴³ فهو تحيز مهوس بالتساؤلات وتجاوز الإجابات الجاهزة التي تطبع الفكر الأيديولوجي المركزي عادة.

وكونه معرفيا أيضا يعني أنه يوفر شكلا من أشكال الحصانة ف"... نحن في اختلافنا عنهم، والذات في اختلافها عن الأعيان، وكون ذلك أصلا معرفيا وإدراكيا مبدئيا يمنعنا من الانبهار والاستلاب تجاه الآخرين، كما يمنحنا حسن تقديرنا لأنفسنا ولهم. وثانيهما: قدرتنا على الفعل والإبداع الخاص، غير المنقطع مع ما توصل إليه الآخرون، ولكن في نفس الوقت متصل بكينونتنا الخاصة وصيرورتنا الممكنة والمأمولة." ⁴⁴ ولذلك كان التحيز ومراعاة الخصوصية هو أحد شروط الإبداع بل أهمهما.

وهو بهذا المعنى يختلف اختلافا كليا عن التحيز الأيديولوجي؛ الذي يوصف بالسلبي ويصطبغ بالصبغة التقديسية والاستعلائية؛ التي تدعي امتلاك الحقيقة وتتمترس خلف عقدة التفوق، ذلك أن "... التحيز المغلق أيديولوجيا وثقافيا مركزية مضادة تنكر المشترك الإنساني المتصل والذي لا شك أن مساحته أكبر من مساحة

⁴⁰ عمر عبيد حسنة، تكامل الحضارات بين الإشكالات والإمكانيات، <https://www.islamweb.net/newlibrary/display>

⁴¹ عبد الوهاب المسيري، إشكالية التحيز في المنهج، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ج1، ص5

⁴² سهام الشجيري، التحيز في تناول الإعلام - بناء نموذج تفسيري لتحيزات وسائل الإعلام، ط1، دار حميثرا للنشر والترجمة،

ص88.

⁴³ المرجع نفسه، ص88

⁴⁴ المرجع نفسه، ص89

الحدود والفواصل، كما أن التحيز الأيديولوجي والثقافي هو تحيز استعلائي يعتمد آلية الإقصاء القبلي وفق تصوراته عن الجواهر الثابتة للشعوب والثقافات الأخرى، أو تعميم الصور النمطية السلبية لها ولثقافتها. لذا نرى أنه من المهم التفريق مبدئياً بين التحيز المعرفي والتحيز الأيديولوجي..⁴⁵.

لقد تمكن هذا التحيز الأيديولوجي من التأثير حتى على الميدان المعرفي؛ حيث أدى إلى " ... نمو فروع معرفية دون غيرها في الغرب... لعل أهمها بلورة فلسفة في التاريخ تجسدت فيما يسمى بفلسفة التقدم التي تفترض مسارا وحيدا للتقدم ونموذجا أرقى للحياة الإنسانية صالحا لكافة الحضارات البشرية وفي المقابل غيابا لفلسفة الحضارات تفترض على العكس أن لكل دائرة حضارية خصوصياتهما في التطور التاريخي ورؤية العالم وموقفها المتميز من الوجود وهو ما يعني تعدد المسارات الممكنة للتقدم وتعدد النماذج الحضارية وليس أحاديتهما.⁴⁶

إن ما سبق بيانه يعني أن التحيز المعرفي؛ هو إيمان بالذات وتعلق بها وهو غير التحيز الأيديولوجي. وهو تحيز لا يلغي المشترك المعرفي بل يغنيه. وفي الوقت نفسه يعني أن المشترك المعرفي لا يراد به القابلية أو التنازل عن الخصوصيات الحضارية لهذه الأمة أو تلك الحضارة سواء كان الموضوع يتعلق بالمسلمين أو بغيرهم؛ ف" ...التفاعل بين الحضارات لا يعني ذوبان حضارة في أخرى.⁴⁷

إن الاعتراف بالمشترك المعرفي؛ الذي يراعي التحيز المعرفي هو ما يتيح الفرصة لمفهوم تعارف الحضارات أن يأخذ موقعه بدل مفاهيم الصدام والصراع وحديث النهايات؛ التي تروج لها نظريات هنتغتون وفوكو ياما وغيرهما من أقطاب نظريات النهايات والصدام. إنه (أي مفهوم تعارف الحضارات) المفهوم الذي يعتمد المشترك المعرفي ويؤسس لتعارف حضاري؛ لا يقصي الثقافات والخصوصيات ولا يمنع التحيزات. وهو مفهوم يخضع أو يستند لقوله تعالى: " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم." (الحجرات/13)

إن دعم المعارف المشتركة والحفاظ عليها؛ حتى توثق أكلها في إرساء أسباب الطمأنينة بين الشعوب لا بد أن يمر عبر الحق في التحيز المعرفي، والعمل على إغنائه واحترام التنوع الثقافي ومصادره " ... فلا يمكن تصور تعاون بناء أو حوار حقيقي بين الثقافات والحضارات دون الإقرار بمبدأ التنوع الثقافي [...] وانطلاقا من ذلك

⁴⁵ المرجع السابق، ص 89

⁴⁶ فؤاد السعيد، التحيزات المعرفية في الرؤية الغربية الحديثة للعالم، ضمن كتاب: إشكالية التحيز - رؤية معرفية ودعوة إلى الاجتهاد، ط1، تحرير: عبد الوهاب المسيري، عمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995، ج1، ص258.

⁴⁷ عمر عبيد حسنة، تكامل الحضارات بين الإشكالات والإمكانات، <https://www.islamweb.net/newlibrary/display>

علينا التمسك بذاتيتنا الثقافية وهويتنا الحضارية والدفاع عنهما في إطار التفاعل مع الثقافات والحضارات الأخرى.⁴⁸

إن تجاوز التحيز المعرفي، بل وإنكار البعد الحضاري في عملية النهوض، وإرادة القطيعة النهائية معه هو ما طبع جهود بعض المفكرين في العالم العربي والإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعشرين؛ حيث انصبت جهودهم على نقل المعرفة الأوروبية والمراهننة عليها؛ باعتبارها النموذج الوحيد للتقدم. وهو ما وجدناه عند رفاة رافع الطهطاوي مثلا في منجزه " تلخيص الإبريز في أخبار باريس " الذي يعكس الانبهار بالتجربة الفرنسية أو النموذج الفرنسي على وجه التحديد، وعند بعض المفكرين المسيحيين أمثال فرح أنطون وشبلي شمائل وسلامة موسى وقاسم أمين لاحقا وغيرهم. وهو الذي لا يزال يقود أفكار ودراسات أبحاث العديد من المفكرين والباحثين في العالم العربي والإسلامي نحو محاولات التقدم والنهضة إلى اليوم.

وفي مقابل ذلك نعثر على جهود ركزت من أول يوم على المراهننة على تحيز الأمة الإسلامية إلى عمقها الحضاري وإرثها الروحي، مع الانفتاح على المعارف والمكتسبات المنجزة في أوروبا واعتبارها مشتركا معرفيا رديفا ورافعا للخصوصيات الحضارية؛ حيث كشفت المحاولات التي قادها التيار الإصلاحية تمسكا كبيرا وتعلقا شديدا وواعيا بالذات ورفضاً تاماً للذوبان في النموذج الغربي، ويظهر ذلك على سبيل المثال لا الحصر، عند جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده في المناظرات مع بعض المستشرقين مثل رينان، أو من خلال المنجزات الفكرية والتفسيرية التي تضمنت الردود على بعض المفكرين داخل العالم العربي ممن تأثروا ببعض النظريات؛ التي نشأت في الغرب في قضايا ومسائل علمية وعقدية؛ مثل خلق العالم والكون والإنسان ونقصد نظرية النشوء والتطور، أو قضايا سياسية مثل نمط الحكم كفضية العلمانية أو قضايا اجتماعية مثل وضع المرأة ومسائل التعدد والمساواة وما إلى ذلك ...

فقد أفصحت مناظرة الأفغاني - شبلي الشمائل حول نظرية النشوء والارتقاء مثلا عن تحيز واضح للرؤية الإسلامية؛ التي تنتصر لنظرية خلق الإله الواحد للكون والإنسان والطبيعة، ورفضاً لنظرية الخلق بالصدفة أو النشوء والتطور كما يقول داروين؛ حيث لم يظهر تحيزه على مستوى الموضوع فحسب، بل على مستوى المصطلح أيضا من خلال توظيفه لمصطلح الدهريين في الرسالة التي تضمنت رده على شبلي الشمائل وهي " الرد على الدهريين ". ولا يخفى على أحدنا أن الدهريين مصطلح قرآني يراد به أولئك الذين ينكرون البعث وينكرون أي مغزى للحياة الدنيا ويقولون إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع. كما قال الله عز وجل على لسانهم " وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين. " [الجاثية / 24] وقد ألمح الأفغاني باستعماله هذا المصطلح إلى القائلين بنظرية التطور والمنتصرين لها، وهو يقصد ذلك لا محالة لأن المصطلحات والألفاظ ليست أوعية أو هياكل بلا تحيزات.

⁴⁸ مؤتمر وزراء الثقافة لدول المؤتمر الإسلامي، الجزائر، 2004.

كما كشفت مناظرة محمد عبده - فرح أنطون بخصوص مسألة العلمانية تحيز الشيخ محمد عبده من خلال رفض الفصل بين الدين والسياسة في السياق الإسلامي بالاستناد إلى طبيعة الدين الإسلامي، والأمر نفسه يظهر في الموقف من قضية المرأة عنده أيضا.

وهذا، في اعتقادنا، يظهر مقدار الوعي الذي كانت تتحلى به تلك التلة من العلماء في تلك الفترة؛ حيث فهموا في وقت مبكر أن أوروبا؛ التي خلطت فتوحاتها المعرفية باستعمار الشعوب وانتهاك خصوصياتها وتكريس فكرة المركزية الثقافية والعنصرية، هي في الواقع ليست معنية بنشر المعارف والاعتراف بالحضارات الأخرى خاصة الإسلامية منها، والتعاون معها؛ بقدر ما هي معنية بإلغائها ومحوها من الوجود الفكري والحضاري.

وهم في كل ذلك يستندون إلى النص القرآني ومقاصده الكبرى؛ التي تحفظ الخصوصيات الحضارية والدينية والفكرية والعرقية للناس، وتحترم التباينات الثقافية والعرقية والعقائدية للمكونات البشرية؛ والتي جاءت في قوله تعالى: " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم." (الحجرات / 13). ولذلك ركزت أدبيات ودعوات علماء النهضة على ضرورة التحيز إلى المرجعية الإسلامية في تلمس أسباب النهضة والتقدم من الغرب ومن أوروبا تحديدا؛ من أجل الاستفادة من تجربتها والأخذ بأسباب العلم والمعرفة؛ لأن العلم في الرؤية الإسلامية لا وطن ولا جنسية له، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها. وكان حرصهم على خط طريق ثالث إلى التقدم وإنكار أي طريق تفرض على الأمة من خارج مرجعيتها أو عمقها وإرثها الروحي...

وفي مقابل هذا الوعي الذي خطه علماء النهضة لا تزال الشعوب والمجتمعات في العالم العربي والإسلامي تصطدم بعقبات؛ يصنعها التيار الذي ظل يرافع من أجل النموذج الغربي ويتغذى من ثقافته الاستعلائية، ويرى تحيز تلك الشعوب تعصبا أو دوغمائية ومنعون، بفكرهم هذا، التوجه نحو حوار جاد وبناء وندي مع الغرب يفضي إلى السلام والتعايش المأمول.

ولذلك فإن ما ينبغي التركيز عليه من قبل الباحثين والمفكرين في الضفتين الشرقية والغربية، هو اعتماد النظرة القائمة على الانفتاح على المشترك المعرفي واحترام الخصوصيات من أجل خلق "... نماذج معرفية جديدة تقوم بإثراء النماذج السائدة وتوسع حدودها والامتزاج بها بحيث تتحول من نماذج غربية تستند إلى معطيات المجتمع الغربي الحديث إلى نماذج عالمية إنسانية تستند إلى معرفة وثيقة مركبة بكل التشكيلات الحضارية وبكل خصوصياتها وتعرجاتها وتنوّاتها وتحاول أن تصل إلى أعلى درجات التجريد وأدق درجات التخصص.⁴⁹

⁴⁹ عبد الوهاب المسيري، إشكالية التحيز في المنهج، مرجع سابق، ص 09.

خاتمة

تقوم الرؤية الإسلامية على ثنائية **المشترك المعرفي**؛ الذي هو اعتراف بجهود الإنسان مطلقاً / **والتحيز المعرفي** الذي هو تمسك بالذات؛ فالمعرفة إنما تصدر عن بنية روحية وقيمية وثقافية. وقد تجسدت هذه الرؤية في الحضارة الإسلامية.

وهي الرؤية التي حاول علماء النهضة اعتمادها في أول احتكاك للعالم الإسلامي بالغرب في مقابل الرؤية الغربية الاستعمارية؛ التي تنفي المشترك وتهدم التحيزات. وهي التي تغذي الكثير من أطروحات التنكر للذات في العالم العربي والإسلامي والتمركز حولها في الغرب.

إن الإيمان بالمشترك المعرفي القائم وتعزيزه؛ بالتوجه نحو إنجاز معرفة موضوعية متحررة من القبلية ومن ثقل المعرفة الاستعمارية؛ التي أسستها الفلسفة الكولونيالية وغذتها الدراسات الاستشراقية والإعلامية ورسختها المصالح الاقتصادية مع التركيز على احترام الخصوصيات الحضارية والتحيزات المعرفية؛ هو بوابة العالم نحو التعايش والسلام.

التوصيات:

في ظل الوضع الذي يعيشه الإنسان؛ الذي بات يرفض حالة التقدم المادي المستمر على حساب الإنسان، ويرفض ارتفاع معدلات الصراع ضد نفسه وبيئته وعالمه. ويرفض القوة كميّار وحيد لحسم الصراعات أو النزاعات التي يصطنعها على حساب المعيار القيمي الإنساني؛ يكون من الضروري التركيز على الرؤية التي تغلب المعرفي وتراعي الخصوصيات بوصفها مدخلا مهما للتعايش والتواصل؛ خاصة بين المسلمين والغرب. وفي هذا السياق نوصي بما يلي:

1/ التكتيف من الملتقيات واللقاءات التي تعرف بالمشترك المعرفي؛ بوصفه أحد أهم مداخل تعزيز المشترك الإنساني من قبل الجامعات ومراكز البحث المتخصصة في العلوم الإسلامية والإنسانية عموماً في البلاد الإسلامية وفي الغرب.

2/ التركيز على ثقافة التحيز بوصفها مخزون يحوي الغنى البشري، ورافض للأحادية ومعترف بالتعدد والتنوع؛ بحيث تتحرك كل جهة وفق ما حققته وتحققه من إنجازات سواء أكانت مادية أو روحية وقيمية تؤهلها للمشاركة في الفعل الحضاري؛ ما يعزز شعورها بذاتها وبدورها الإنساني من أجل إنقاذ الإنسان في هذا العالم.

قائمة المراجع:

- 1/ البحطيبي نوال حسن ، العلوم عند العرب والمسلمين، دار الخليج.
- 2/ بن عاشور محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس، دار سحنون، 2006.
- 3/ بن عاشور محمد الطاهر ، أليس الصبح بقريب، ط1، مصر، دار السلام، 2006.
- 4/ بنمعر محمد ، الدلالة المصطلحية للتداخلية وموقعها في قراءة التراث عند الدكتور طه عبد الرحمن، مركز نماء للبحوث والدراسات.
- 5/ تاسفرت يوسف، تفاعل الحضارات، تر: حميد لشهب، الرباط، دار الأمان، 2004
- 6/ التطاوي عبد الله ، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 2006.
- 7/ التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج2.
- 8/ الجرجاني، التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة.
- 9/ حجاج سومية ، المشترك الديني بين الأديان السماوية والعالمية، بيروت، دار الكتب العلمية.
- 10/ الدغامين زياد خليل ، التكامل المعرفي في القرآن الكريم، المجلة الأردنية للدراسات الإسلامية، المجلد التاسع، 2013.
- 10/ ذوابي مي نجيب ، أثر التشارك بالمعرفة في تحقيق الأهداف الاستراتيجية- دراسة تطبيقية على الجامعات الأردنية الخاصة- مجلة كلية بغداد للعلوم الاقتصادية، ع43، 2015.
- 11/ رشيق حسن ، المعرفة المشتركة في حياة الناس اليومية: اللباس والدين، مجلة عمران، ع02، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سبتمبر 2012،
- 12/ رفيع محماد، المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني، إسلامية المعرفة، ع66، السنة 17، 2011، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- 13/ زفروق حمدي ، الإسلام في مرآة الفكر الغربي، ط4، دار الفكر العربي، 1994.
- 14/ الزبيدي عبد الرحمن بن زيد ، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992.

- 15/ الزواوي خالد ، سماحة الأديان والسلام العالمي، ط1، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2004.
- 16/ سايفرت يوسف، تفاعل الحضارات، تر: حميد لشهب، الرباط، دار الأمان، 2004.
- 17/ سعيد إدوارد ، الاستشراق، المعرفة، الإنشاء، تر: كمال أبو ديب، ط1، بيروت، دار مؤسسة البحوث العربية، 1990.
- 18/ السعيد فؤاد ، التحيزات المعرفية في الرؤية الغربية الحديثة للعالم، ضمن كتاب: إشكالية التحيز- رؤية معرفية ودعوة إلى الاجتهاد، ط1، تحرير: عبد الوهاب المسيري، عمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995، ج1.
- 19/ الشحيري سهام ، التحيز في تناول الإعلامى - بناء نموذج تفسيري لتحيزات وسائل الإعلام، ط1، دار حميثرا للنشر والترجمة.
- 20/ صليبا جميل ، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982، ج2
- 21/ طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
- 22/ عبده محمد، رسالة التوحيد، تحقيق: محمد عمارة، ط1، القاهرة، دار الشروق، 1994.
- 23/ عقيلة حسين، المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي، ط1، بيروت، دار ابن حزم، 2004
- 24/ الفراك أحمد ، علاقة المسلمين بالغرب والتأسيس القرآني للمشارك الإنساني، مطبعة إفريقيا الشرق
- 25/ فياض حبيب ، مقاربات في فهم الدين، ط2، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2008.
- 26/ محفوظ محمد ، من التنوع إلى المشترك، مجلة الكلمة، ع102، السنة 26، شتاء 2019.
- 27/ المسيري عبد الوهاب ، إشكالية التحيز في المنهج، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ج1.
- 28/ الملاخ احمد وحافظ اسماعيلي العلوي، بعض الاستراتيجيات التأويلية لفهم اللغويات العربية، مجلة فكر العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع08، يونيو 2008.
- 29/ ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ج 10.
- 30/ مؤتمر وزراء الثقافة لدول المؤتمر الإسلامي، الجزائر، 2004
- 31/ الندوي أبو الحسن ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

مشاركة المعرفة: معناها وأهميتها

<https://masr.ta3mal.com/ar/Pages/Content/Article.aspx?ArticleID=4260>

عمر عبید حسنة، تكامل الحضارات بين الإشكالات والإمكانات،

<https://www.islamweb.net/newlibrary/display>

حيدر حب الله، العرفان الإسلامي بين الإشكاليّة المعرفيّة والآليّة التربويّة والمنحى الواقعي، مركز البحوث المعاصرة

بيروت، 2015/07/01. <http://nosos.net/%D8%A7%D9>